قضايا

لم تحدث النكبة في فلسطين في العام 1948، بل سبقتها تقديمات ونكبات على غير مستوى، بشأن الثقافة والهوية والأرض وأهلها، في محاولات الاستشراق نفي فلسطين مجتمعاً وثقافة، ثم منح الانتداب البريطاني، وهو احتلال مباشر، الأرض إلى المستوطنين، ثم سرقة المحتل الإسرائيلي الممتلكات الثقافية للفلسطينيين. تقدّم هذه الدراسة مطالعة في مسار هذه الممارسات

من الاستشراق وصولاً إلى السرقات واختلاق التاريخ

النكبة الفلسطينية فعلاً ثقافياً [2/2]

عاطف أبو سيف

تحدث الجزء الأوّل من هذه المادة عن محاولات الاستشراق لتصوير فلسطين أرضاً تنتظر أصحابها، وعن تبهيت صورة الحضور الفلسطيني في البلاد المقدّسة، من خلال لوحات غوستاف باورنفيند مثالا لا حصرا. ويتابع الجزء الثاني من هذه المادة كيف حضرت النكبة في الصحافتين البريطانية والفرنسية، وكيف تمت سرقة الهوية والرواية والسطو على الممتلكات، حيث تكشف نظرة سريعة على واقع الحياة والثقافة في فلسطين قبل النكبة بشاعةِ الجريمة التي جرت بحقِ البلاد.

محو مبكّر

الجانب الآخر من هذا التنكيب الثقافي دفعَ قوّة الاحتلال البريطاني تجاه تعزيز تمليك فلسطين للمستوطنين اليهود من خلال منحهم الدخول إليها والاستيطان فيها، وغض النظر عن تسليحهم ومساعدتهم في ذلك والمنافذ القوية التي منحت لها على اقتصاد البلاد ومقدراتها. في الحقيقة، بدأت عمليات إزالة القرى الفلسطينية وتدميرها ومحوها عن الوجود منذ عشرينيات القرن الماضي، أي قبل قرابة ثلاثة عقود من النكبة، وكانت تتم بالشراكة بين المؤسسات اليهودية العاملة لسرقةِ أرض الفلسطينيين وبين سلطات الانتداب البريطاني. وأبرز هذه الجمعيات الجمعية اليهودية للاستعمار في فلسطين والكيرين كايميت والكيرين هايسود. وشمل هذا التعاون الهبات الكبيرة والسخيّة التي كان يمنحها المندوب السامي من الأراضي لهذه المؤسسات حتى بلغ مجموع ما منحه لهم مليونا وربع المليون من الدونمات، وهو يشكل 58% مما كانت الحركة الصهيونية ومؤسساتها يستولون عليه في فلسطين وقت النكبة. نجم عن هذا محاصرة قرى فلسطينية كاملة بمستوطنات جديدة والضغط على السكان والتضييق عليهم، بجانب أن القوّات البريطانية طوّرت سياسات ترحيلٍ خاصة من أجل إفراغ المناطق بشكل يسمح بتوسع الوجود الاستيطاني اليهودي. نجم عن هذا إزالة 60 قرية وتجمعاً زراعياً فلسطينياً يقع معظمها في مناطق شمال فلسطين في السهل بين يافا وحيفا. لقد قامت القوّات البريطانية بطردِ الفلسطينيين من قراهم وترك مستوطنات اليهود تستولي عليها. مثل أم التوت وزمارين وحانوتا وجيدا وتل الشمام وغيرها.

قد يبدو مثيراً مثلاً مراجعة كيف قدمت الصحافتان، البريطانية والأميركية، وربما مجمل الصحافة الغربية، ما جرى من أحداث خلال جرائم النكبة. أولاً، كان ثمة اتفاق في الوعي البريطاني هو نتيجة عقود من جهودٍ ماكينة التشويه الثقافي بأن ما يجري في فلسطين صراع أهلي وحرب داخلية بين سكان البلاد الواحدة، وهو ما صار حكمةً رائجةً للأسف بعد الحرب العالمية الثانية، ودعت إلى وجودِ تقسيم البلاد بين ساكنيها، متناسين أن ثمة غرباء وصلوا قبل أشهر، وأن وجود أقدمهم في البلاد لا يتعدى سنوات. والمفارقة أن قادة العصابات الصهيونية، وهم بالتالي الأحزاب السياسية المفترض وفق هذا الفهم أن يكونوا من سكان البلاد، لم يولد أحدهم داخل فلسطين. ولكن تلك الماكينة نجحت بتقديم ما يجري حرباً أهلية لا يتم حلها إلا بتقسيم البلاد. وهذه من أكبر جرائم المجتمع الدولي بحقنا.

حياة فنية وثقافية فلسطينية غنية

تكشف نظرة سريعة على واقع الحياة والثقافة في فلسطين قبل النكبة بشاعةِ الجريمة التي جرت بحق البلاد. لم تكن فلسطين أرضاً بلا شعب تنتظر من يعمرها، بل كانت تطفحُ حياةً وفعلاً وإبداعاً في كل حقول الثقافة والمعرفة من شعر ورواية وقصة قصيرة وصحافة ومطابع وسينما ومسرح وموسيقى وإذاعة وحرف ومشغولات وأزياء، وكانت مدن فلسطين الكبرى حواضن ثقافية ومحجًا لكل من يريد الشهرة والترويج لعمله الفني. كان الحضور ليافا والحديث من خلف الإذاعة هناك جزءاً من النجاح، كما أن وفود الفرق المسرحية لأداء عروضها على مَسارح يافا والقدس وحيفا كما الأمر بالنسبة للمطربين والموسيقيين، كباراً أو صغاراً، كان جزءاً من النجاح المنشود.

لقد كانت فلسطين «مغناطيسا» جاذبًا لكل فعل ثقافي وفني، وكانت مسارحها ودوّر السينما فيها كما أنديتها الثقافية ومعارضها التجارية والفنيّة ومواسمها كما صحفها والإذاعة فيها كما مكتباتها ومطابعها ودور النشر والتوزيع، كانت كلها مراكز جذب لا يقاوم لكل من يريد أن يُشهر عمله ويعلن عنه ويسوقه. كان الوقوف خلف ميكرفون الإذاعة في القدس أو يافا أو قراءة قصيدة في منتدى ثقافي على ساحل البحر علامة نجاح لا بدّ منها. ليس فقط أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب في الغناء، ولا فقط محمد مهدي الجواهري وحافظ إبراهيم وميخائيل نعيمة في الشعر، ولا عباس العقاد وطه حسين في الكتابة، ولا نجيب الريحاني ويوسف وهبة وعلي الكسار في المسرح، مئات الأعلام وفدوا من أجل أن تشع أسماؤهم في سماء فلسطين. كما حظيت فلسطين بالريادة العربية في الكثير من حقول المعرفة والإبداع وكانت سبّاقة في الكثير من المجالات.

ما إن حانت لحظة النهضة العربية في القرن التاسع عشر بعد ظهور الطباعة والصحافة والآلة الكاتبة والقطار والمدارس ومعاهد العلم والمسرح والسينما والراديو والغراموفون والهاتف، حتى كانت فلسطين أماكن مألوفة في المدن وكانت الفرق المحليّة والعربية تعرض عليها إبداعاتها بشكلٍ مستمر. وتطوّرت ثقافة مسرحية جعلت المسرح تفصيلاً ضروريًا في الحياة حتى بات في المدرسة وفي الإذاعة لاحقا؛ الأمر الذي تنامى مع ظهور دور السينما في المدن الكبرى وانتشارها بشكل لافت. وربّما بمقارنة عدد دور السينما في البلاد في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي بعدد سكان فلسطين في ذلك الوقت، سنجد أنَّ فلسطين تفوَّقت في مؤشرات الاهتمام بالسينما على الكثير من دول العالم حتى بأرقام اليوم. يافا وحدها كان بها 11 دار سينما في لحظةٍ زمنية واحدة، منها طبعاً سينما الحمرا الشهيرة.

لم تكن فلسطين أرضًا بورًا، كانت حقلاً مزدهرًا بالبنيان والمعرفة والفنون والثقافة والتحديث، كانت موانئها التي طفت على تخومها هزائم الغزاة خلال القرون تقف شامخةً في وجه البحر، فيما المدن تتفتح بتلاتها على السهل أو فوق الجبل. كانت مهمة النكبة نفي كل ذلك ومسحه وطمسه وسرقته حيث أمكن. ماذا حدث لهذا كله؟ ما حدث في النكبة كان تتويجاً لنكبةٍ ثقافيةٍ بدأت قبل عقودٍ طويلة، هدفت إلى شرعنةِ ما سيجري وتثبيته فكرياً في الوعي الغربي الذي توجّب عليه حمل هذه الأفكار وتطبيقها، وخلال ذلك تم توظيف الدين والمرويات والأساطير والاستشراق وأفكار عصري النهضة والأنوار كما ظهور الوطنيات الأوروبية وحتى تكوينات التنظيم الدولي منذ عالم ويستفاليا حتى تكويناته الحديثة الناجمة عن صراعات القوى الأوروبية.

لوحة «سوق في يافا» لغوستاف باورنفيند (Getty)

> لم تكن فلسطين أرضاً بلا شعب تنتظر من يعمّرها، بل كانت تطفحُ حياةً وفعلاً وإبداعاً في كلّ حقول الثقافة والمعرفة

> سعت عملية التهويد إلى عبرنة كلّ شيء بحيث يبدو في الأصل عبرانياً

> جوهر الحرب على الثقافة الفلسطينية جزء أصيل من المعركة غير الأخلاقية التي يتم شنّها على الشعب الفلسطيني من أجل مواصلة اجتثاثه من أرضه

3

خلال النكبة تمت سرقة كل شيءٍ في البلاد. كان الجنود يقتلون ويبقرون النساء الحوامل وآخرون يسرقون البيوت ويزيلون منها كل مقتنياتها الثقافية والجمالية. لنتخيّل المشّهد التالي الذي جرى في سياقاتٍ عديدة خلال النكبة في المدن الكبرة، تحديداً يافا والقدس وحيفا، وثمة صور كثيرة موثقة من الأرشيف الإسرائيلي تشير إلى هذه الجرائم الثقافية. جندي يقتل الشيخ العجوز صاحب البيت فيما آخر ينزع لوحةٍ فنيةٍ مرسومةٍ بالزيت لمشهدٍ ريفي أو لقاربٍ في البحر أو لقطف البرتقال معلّقة في صالون البيت، مجندة تطلق النار على طفل أفاق من النوم مذعوراً بعد مهاجمة الأراغون بيتهم، فيما ثلاثة جنود يحملون البيانو ذا الأصابع والأكتاف العاجية، ثم تأتي مجموعة من الرجال ليسرقوا مكتبة المنزل العامرة بمئات الكتب القيمة بلغات مختلفة، وفي خضم كل ذلك يهجم أفراد آخرون من العصابة على دار للسينما أو قاعة للمسرح، وفي سياقاتٍ مستمرّة تمت سرقة كل الممتلكات الثقافية في البلاد من دور السينما والمسارح، تمت سرقتها كما تمت سرقة البيوت. جرى نزع اللوحات الفنية عن الجدران وسرقت المطابع والصحف والكتب والآلات الموسيقية كما تمّ السطو على الإذاعة وتحويل معداتها للإذاعة الصهيونية. عمليات السرقة لم تتوقف عند حد، وكان جوهر ذلك سلب الفلسطينيين ما لهم ونسبه للأغيار بغية تثبيت الرواية القائلة بعدم وجود شعب في البلاد، وأنها كانت أرضاً بكراً تنتظر المستوطنين الغرباء حتى يعمروها.

سرقة الهوية والرواية والسطو على الممتلكات

مع تنكيب الشعب الفلسطيني وسرقة بلاده وقعت نكبة أخرى بالتزامن. رغم أن هويّة فعل النكبة ثقافية بامتياز، بوصفها سرقة لروايةِ العالم عن البلاد. وبالتالي، استبدال سكانها بعد اقتلاعهم وتدمير مكانهم، ولذا فإن سرقة هويّة البلاد هي جوهر فعل النكبة كما أعتقد. كان جوهر النكبة الثقافية تثبيت عمليات سرقة البلاد وتهويدها وأسرلتها وصهينتها من خلال أولا بتر النهضة الثقافية في البلاد ووأدها بالموازاة مع عبرنة كل اللقى الأثرية والمواقع التراثية وصناعة قصّص وحكايات توراتية حولها، ومن خلال تهويد الأفق حتى تبدو البلاد عبرانية واحتلال الفضاء الثقافي مثل إعادة توظيف المسارح ودور السينما والمطابع ودور الإذاعة، ولكن ضمن نسق مختلف حتى لا يتم الإقرار بالوجود الفلسطيني الثقافي السابق على وجودِ الدولة. مثلا كيف يتم على سور عكا وضع قصة حصار عكا والتركيز على وجود مستشار يهودي لأحمد باشا الجزار قاهر نابليون، اسمه حاييم فرحي. وفيما ثمة إشارات لوجود فرحي في فترة أحمد باشا الجزار، فإنه يتم اختصار صلابة السور ومناعة المدينة بحكمة اليهودي الحكيم.

واحد من أبشع أشكال النكبة الثقافية كان عبرنة الخريطة الفلسطينية حيث تم تشكيل لجان من مؤرّخين وآثاريين ولاهوتيين وخبراء في علم رسم الخرائط وجغرافيين بغية تعيين أسماء عبرية لجميع القرى والمدن والوديان والسهول والينابيع والطرقات في البلاد. القصد كما أوضح بن غوريون في حينه إزاحة الأسماء العربية لـ«أننا ببساطة لا نعترف بحق العرب السياسي بامتلاك الأرض، ولا نعترف أيضاً بحق امتلاكهم الروحاني ولا بأسمائهم»، عملية التهويد هذه سعت إلى عبرنة كل شيء بحيث يبدو في الأصل عبرانياً. مثلاً، يافا صارت يافو، وحتى بتين صارت بيت إيل ووادي علي بات «عيلي»، وهكذا تمّ اختراع أسماء وهمية حتى تبدو ذات رنين قديم. جرت عمليات تدمير شاملة لذاكرة الأماكن. وتمّ محو ومسح التجمعات والقرى والمدن الفلسطينية ليس فقط من خلال استبدالها بالكيبوتسات والبلدات الجديدة، بل من خلال محوها ومسحها موضوعياً وعلمياً في الأوراق البحثية والكتب الدراسية الأكاديمية للجغرافيين والباحثين الإسرائيليين. كان القصد دائماً تحرير المكان من هوية السكان الأصليين، أي أصحابه. وكما تقول فرجينيا تيل: «تم اختراع مجموعة من السلطات العلمية واللغوية والأدبية والتاريخية والإنجيلية لتعزيز الانطباعات عن الانتماء اليهودي والحقوق الطبيعية في وطن يهودي مستمد من حق يهودي خاص في هذه الأرض».

حتى إن كتب بعض الباحثين الإسرائيليين تكشف الكثير من هذه البشاعة. كتاب المؤرخ الصهيوني ميرون بنفنيستي «المشهد المقدس.. طمس تاريخ الأرض المقدسة منذ 1948» رغم انحيازه المطلق للرواية الصهيونية. وكتب شلومو ساند الثلاثة «اختراع أرض إسرائيل»، و«اختراع شعب إسرائيل»، و«لماذا لم أعد يهودياً». ففي إطار سعيها لسرقة البلاد، إن الحركة الصهيونية وأدواتها المختلفة خلال مجازر النكبة وبعدها، سعت إلى سرقةِ كل ما في هذه البلاد من تراثٍ مادي وغير مادي، فاللص يريد أن يسرق كل شيء من المكان وتفاصيله، بما فيه تاريخ هذا المكان، وحتى عادات وتقاليد أهل المكان وملابسهم. السرقة الشاملة التي تضم كل شيء من أجل تزوير التاريخ ومحاولة فرض حكاية الغزاة الذين لا علاقة لهم بالمكان ولا بما عليه. من هنا، جوهر الحرب على الثقافة الفلسطينية جزء أصيل من المعركة غير الأخلاقية التي يتم شنها على الشعب الفلسطيني من أجل مواصلة اجتثاثه من أرضه. يبدأ هذا من تغييب الفلسطيني من السرديّات التي تصنعها الأكاديميا بحرفيةٍ عالية إلى سرقة الآثار والتراث غير المادي إلى مصادرة الفعل الثقافي، وصولاً إلى منع، حيث أمكن، كل ما يمكن أن يعزّز علاقة الفرد بالوطن وبحكاية الوطن. بالتالي عملية التهويد هي ركن أساس في المشروع الاستعماري الإحلالي يتم التعبير عنه من خلال سرقة التراث، من الحجر إلى الثوب، ومن المعبد إلى أسوار المدينة. فخلال عملية سرقة البلاد تمت سرقة مئات آلاف الكتب من المكتبات العامة والمكتبات الشخصية ومحلات بيع الكتب، كما تمت سرقة الآلات الموسيقية وأجهزة بث الإذاعة ومطابع الصحف واللوحات الفنية عن جدران البيوت والمقاهي والمسارح والمؤسسات الأهلية والعامة. هذه أكبر عملية سطو ثقافي في التاريخ، وهي غير مسبوقة في بشاعتها.

تبدو سرقة الكتب نموذجاً واضحاً في ذلك. لقد تعرّض الكتاب الفلسطيني، سواء الممتلك من قبل الفلسطينيين أو ذلك الذي ألفه الفلسطينيون، أو ترجموه، أو طبع في مطابعهم، إلى عمليةِ سرقة ممنهجة غير مسبوقة في التاريخ. خلال عمليات السرقة هذه تمّ تطوير استراتيجيات النهب والسلب والسرقة والبيع والهرْس والطحن، وآليات الإخفاء والتزوير، وإظهار ذلك كله عملا أخلاقيا من باب «الرأفة والإنقاذ». يشير عميت غيش عميت في كتابه «بطاقة ملكيّة: تاريخ من النهب والصون والاستيلاء في المكتبة الوطنية الإسرائيلية» إلى وجود 30 ألف كتاب كانت في مكتبات فلسطينية خاصة وعامة في مدينة القدس وحدها، وتمت سرقتها وإيداعها في المكتبة الوطنية، حتى مكتبات المدارس تم نهبها، كما يذكر أنه تم جمع نحو 40 ألف كتاب من مدن يافا وحيفا وطبرية والناصرة وأماكن سكنيّة أخرى كانت غالبيتها كتبا تدريسيّة جُمعت من مؤسسات تربويّة، ومن مدارس عربيّة أثناء حرب 1948، بجانب قرابة 40 ألف كتاب تم تخزينها في مخازن وزارة المعارف.

(روائي ووزير للثقافة الفلسطينية سابقاً)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

فلسطين والنهضة العربية

ما إن حانت لحظة النهضة العربية في القرن التاسع عشر بعد ظهور الطباعة والصحافة والآلة الكاتبة والقطار والمدارس ومعاهد العلم والمسرح والسينما والراديو والغراموفون والهاتف، حتى كانت فلسطين في أوّل القاطرة مركزاً، وجدت سبيلها نحو التحديث بكلّ سهولة؛ وقد ساعدت على هذا الأمر أهمية البلاد ووجود التنوّع الديني من كنائس وأديرة مختلفة ومساجد عامرة بالمكتبات وحلقات العلم ومكانة العاصمة القدس وبيت لحم والناصرة.